الأولاد في خطر

أحاديث شوارع عن الشم والأنس والفواحش.. والغوث الغوث!

تحقيق عبد الكريم العبيدي

للطفولة وجه.. غير هذا الذي نراه ونألفه هو وجه لطفولة فوضى، أو طفولة "حظ"، طفولة بلا دموع، تجدها مقبرة، سوداء، في الساحات والتقاطعات والشوارع والأرصفة في الحدائق والخرائب والأبنية، في دور السينما والمباني والمعامل، وفي الدوائر المنهوبة التي تشغلها عوائل الحروب.

هي طفولة للعرض فقط.. تشرح صورتها الشوهاء بلا أدلة، تقترب من "عرينها" بحذر، خشية أن تتشظى فتصاب ببراءة طائشة..

وهي موجودة فينا وبيننا وعند خط افتراقنا.. وهي الحاوية لنا والبعيدة عن شوقنا نحن الأطفال الكبار، الغائبين عن اللهو والمفرمين بالفرجة.

حالنا إذن حال المتكئ على أساه، والغائب عن سلالة الغد.

الفرهود ثم الأنس!

في موقف باصات الأمانة في الكرنتينة، جلست على مصطبة وخلفي جدار كتب عليه: (هنا مقر حزب الدجالين والمحتالين).. قبالي كان يجلس فتى في الثانية عشرة.. لم يكترث بي، ولكنه طلب مني سيكارة بوقاحة، سررت لطلبه ومنحته واحدة ووضعت أخرى في جيب قميصه.. اقترب مني قليلاً وراح يدخن بتلذذ ويطلق الدخان من أنفه بقوة.. قال لي: أنا عاطل ومفلس.. قلت له: لو بحثت عن عمل ستجده

- أين أجده والفرهود انتهى!
- وهل الفرهود مهنة؟

نعم.. ثمة من يستأجرني معه مقابل خمسة آلاف دينار، أو عشرة آلاف، واحياناً خمسة وعشرين ألفا!

- شخص أم جماعة؟
- جماعة طبعاً..

وهل جمعت مالاً وفيراً

- أجمعه وأصرفه على عائلتك

ليس لدي عائلة.. أكرههم جميعاً! أصرفه على نفسي، السكائر والخمر، و (الشمة..)

من أين تحصل على مخدرات؟ موجودة بوفرة!

أين؟

- في الباب الشرقي وبغداد الجديدة وتحت الجسور وساحة الطيران والبتاوين..

- والآن.. بعد كساد تجارة الفرهود.. أين تعمل؟

على (الأنس)!!

لن أخبركم عما دار بعد ذلك من حوار صريح، فأنا نفسي لم أصدق امتلاكي الجراة على المجاورة في مظاهر الأنس. كنت أتعرق خجلاً، لكن (الولد) كان يمتلك جراة السفيه مرة، ولعنة الواقعي مرة، والمستسلم للحظ مرة. آخر كلماته حين سالته عن المستقبل كانت:

أحياناً وأضاف: لكنني أتعب وأحزن واطرده من رأسي!

الشم

في أزقة شارع الشيخ عمر ومقاهيها ينشطر المرء إلى شطرين.. شطر يكظمه وآخر للوجوه والحوادث.. (أطفال بعمر الشيطنة).. هكذا رأيتهم، انسلخوا من عوالمهم مصادفة، ووجدوا حانة الوقت في انتظارهم فهرعوا اليها.. ليس فيهم ما يدلك على براءة.. ليس في وجودهم شراع يحمل أيامهم.. أولئك نسوا ضيقهم فتذكرهم الضياع..

قلت لأحدهم: مضى علي أكثر من ساعة وأنا ابحث عن سكائر خاصة!

السكائر غالية الثمن.. عليك بهذا..

وشار إلى علبة فارغة مركونة أسفل كرسي قديم

- ما هذه؟

نثر!

أيضي بالغرض؟

- جرب

وهل ثمة أنواع أخرى؟

كثيرة هي الأنواع..

- أين أجدها؟
- أنت صحفي!

نعم

سأخبرك ولكنني لست مسؤولاً..

- نعم نعم.. فقط أريد أن أعرف

- هناك الكوكائين و (السويكة) والنثر والوارنيش وحبوب (الكبسلة) بأنواعها.. مخدرات كثيرة لا اعرفها.. بعضها باهظة الثمن.. يشتريها السماسار ويبيعها للأمريكان والأغنياء.. هناك محال تجارية تبيع المخدرات بالسر.. وهناك من يشتريها لبعض الأطفال مقابل اصطحابهم (للأنس)!

هنا وفي شارع السعدون وفي الحيدر خانة وفي الميدان وفي الكرنتينة وأماكن أخرى عديدة.

كم (شمة) لك في اليوم الواحد؟

- حسب مصرف الجيب..
- ألا تستطيع الإقلاع عنها؟

أدوخ! إذا لم أشم أتألم!

هل هناك أطفال غيرك في هذه الأمكنة؟

- نعم.. أذهب بهذا الاتجاه.. وأشار إلى زقاق ضيق.. هرعت إليه فوجدت بخمسة أطفال يجلسون صامتين وبيد كل منهم (علبة موطا) أو علبة سكائر.. حين انتبهوا لي وقفوا.. قلت لهم.. على راحتكم.. فقط أريد أن أسألكم.. هتف أحدهم:

- (ماكو اسئلة).. قالها بحدة.. قلت له فقط أريد أن أشتري مثلكم..

لا نعرف.. ثم نهضوا وتفرقوا بسرعة وبأيديهم علبهم.

مقهى عمل

دخلت إلى أحد المقاهي هناك.. طلبت شايا ورحت أحدق في مجموعة من الأولاد.. ولما أتيحت لي فرصة الاقتراب منهم سألتهم:

هل تجلسون كل يوم في هذه المقهى؟

أجاب أحدهم:

- تقريبا.. لماذا؟

لا.. ولكنني أردت أن أعرف إن كنتم تتمتعون الآن بالعطلة الصيفية.. أم إنكم منقطعون عن الدراسة؟

- كلنا بلا مدارس.. قال أكبرهم.. فتى في الخامسة عشرة

وأين تقضون وقتكم؟

- التحقيق هو؟

أبدا فقط أريد أن أعرف..

في المقاهي

ألا تعملون؟

- وأين هو العمل؟

إذن كيف تحصلون على المال كل واحد على طريقته!!

- أريد أن أعرف طريقة واحدة

- لا توجد طريقة ثابتة

كيف؟

- هل يعنيك الأمريكان؟!

- أبدا.. قلت لكم فقط أريد أن أعرف

عمو.. أجابني أحدهم.. هل تحتاج إلى شيء!؟ قالها بفروغ صبر مثل ماذا؟ .. ماذا تقصد؟

- (هاي شلون ورطة).. عمو هذا المكان لا يفيدك، ابحث لك عن مقهى أخرى

أليست هذه مقهى؟

هذا مكان عمل (وقهقهوا جميعا) إلا أنا.. صمت بالفعل.. كنت أحتاج إلى صمت ثقيل كهذا.. تركت فنجان الشاي وخرجت.. ونيتي تقودني بلهفة إلى دار للسينما قريبة من موقع المقهى لأكمل خيبتي من هذا التجوال المرعب...

الغوث مما رأيت

نصيحتي لكم جميعا سادتي أن لا يرتاد أحدكم داراً للسينما بعد الآن.. فالخدعة الأولى تكمن في أن الفلم المعروض على الصالة هو ذلك الفلم الذي تراه على واجهة السينما، فهو فلم إباحي 100% ومع هذا فلم يشكل لي صدمة كبيرة... بحجم صدمة ما رأيت وما لمست من حولي وفي زاوية الصالة... رأيت بعضهم يشرب الخمر وبأنواعه.. ورأيت بعضهم يتناول الحبوب.. شاهدته بعيني كيف يضعها في فمه ويده ترتجف ولا يقوى على محاورة زميله..

ورأيت علب (البيرة) بعيني يخرجها بعضهم من أكياس عند أسفل أقدامهم ويفتحونها بصخب ويكرعون منها..

ورأيت أطفالاً يمدون أيديهم إلى آخرين يجلسون لصقهم.. ورأيت صوراً لا أقدر على وصفها حتى همساً أو إشارة!

رأيت العديد من المشاهد التي نسيت فيها عراقيتي وشرقيتي (وهربت) من السينما وتنفست في الشارع بقوة.. وأطلقت عشرات الحسرات.. ومشيت باتجاه حديقة الأمة..

في حديقة الأمة

على ذلك السطح الأخضر في حديقة الأمة تجد الصورة الذابلة من الطفولة.. وتصطدم بالحوارات الفاضحة والكلمات القبيحة والشتائم الخليعة.. في ذلك المكان تحاور أبالسة بحجم أطفال.. أو أطفال بحجم الكبائر.. أو بلاء بحجم كارثة!

قابلت سماسرة عرضوا علي نساء وأطفالاً بعد أن اطمأنوا من غايتي.. وعرفت أنهم يمارسون هذه المهنة علناً، وأنهم يخيرون الزبون في طلبه وفي المكان الذي يريده والمشروب الذي يفضله.. وكل شيء بثمن.

في العديد من محال الحدادة والسمكرة تجد أطفالاً وسخين.. ثيابهم ملطخة بالسواد ووجوههم مدهونة وشعورهم مشعثة.. اقتربت من أحدهم وسألته:

- منذ متى وأنت تمارس هذه المهنة؟
- من ثلاث سنوات
- ولكنك صغير عليها أليس كذلك؟ ماذا تعمل (العيشة تتطلب)..
- هل والدك على قيد الحياة؟

أمي متوفاة.. أبي تزوج امرأة أخرى.. تركتهم!

سألت طفلاً آخر:

هل أنت سعيد بهذه المهنة القاسية؟

- (ناكل عيش) منها!
- هل أنت في المدرسة؟
- تركتها من الصف الخامس الابتدائي
- أليس ثمة من يعيلك؟
- أبي شهيد !! ولدي عائلة كبيرة.. أقاربي لا يحبوننا!

وسألت طفلاً آخر:

اسمك؟

- (.....)

هل تتقن هذه المهنة منذ زمن؟

- منذ خمس سنين

وهل تستمر فيها؟

- أين أذهب؟
- ألا تشعر بإجهاد من قسوة هذه المهنة؟

طبعاً.. خاصة في الليل

وأسرتك ما دورها؟

أنا أعيلهم (قالها بفخر) أبي مريض وأمي ربة بيت...

الخطر

ترى هل أجدني أقارن بين أطفال الشم وأطفال العمل البطولي هل أفضل الآخرين على الأولين؟ بالطبع.. بالطبع.. فالعمل يمنح القوة والابتعاد عن الشوارع الموبوءة.. لكنه يميت الطفل قبل الأوان، يبعده عن التعليم، ويجعله قاسياً، ومن يدري أين المآل الأخير؟

الطفولة في خطر.. الطفولة في متاهة..

ثمة جزء رطب من وجودنا يتفسخ، ينحدر، يترك أرجوحته ويذهب إلى الحطب، يقطف ضحكاته ومسراته ويمسح دموعه بصمت.

هناك عند تلك المنعطفات الضالة والمؤلمة تجد الحياة صفراء في أبسط صورها..

تجد الوطن يتعرى ويخرج إلى أحبابه بلا طفولة!

العمارة.. مدينة بلا غناء!

تهديدات بسمل العيون وأخرى مضادة بتفجير المحال!

العمارة: محمد الحمداني

هل يمكن أن نتخيل مدينة العمارة بلا غناء؟

ان نصف الغناء العراقي يأتي من العمارة وريفها. يكفي أن نتذكر هذه الاسماء المؤثرة: سعدون العماري تلي، سلمان المنكوب، عبادي العماري، سعدون جابر، كريم منصور.. وغيرهم كثير.

وهل ينسى المحمداوي بألوانه المختلفة.. الا يتابع هذا الطور الحزين خط الغناء الذي ولد وتفجر في العمارة وريفها واهوارها لينشر في العراق كله؟

إن الجنوب كله، منذ السومريين، عبر بغنائه عن حياة الناس وهمومهم وأفراحهم، ولا سيما الفلاحين، والصيادين منهم.

لكن علينا أن نصدق أن العمارة باتت بلا غناء. فالشرطة الغناء والموسيقا أختفت من محال التسجيل، وشبكة التلفاز المحلية لم تعد تبث الأغاني.

فماذا حدث؟

الحذر والضرر

الأسرار في مدينة مثل العمارة لا يمكن أخفاؤها طويلاً، وحين ذهبت الى البعض من محال التسجيلات، بدا واضحاً لهم انني أعرف السر، وبدا واضحاً أن اصحابها فضلوا أخفاء اسمائهم. أحدهم، ولنسمه (خ)، كان حكيماً حين قال ما معناه أن الحذر يقيك الضرر. وأنا بالمقابل لم أرد أن أبدو عارفاً جداً، مثل الأحمق، فواصلت الحديث مع (خ) بلهجة استفهامية.

قال: إنني حذر من أجل أن لا يدخل علي أحدهم شاطر أسلاحه بوجهي ويسألني هذا السؤال القاتل: من سمح لك بتسجيل الأغاني؟

إزاء هذا الاحتمال الوارد فعل (خ) ما يجب فعله: أفرغ محله من الاشرطة والاقراص الغنائية وذهب بها الى بيته. وأسأله هذا السؤال الغشيم: لكن هل ثمة منع؟ أنا اعلم انه لا يوجد. قال وانا مستغرب في وجهه: أخي أنا رجل لا علاقة لي بما يجري. إن عملي مصدر رزقي الوحيد. هل تريدني أن احدثك عن التهديدات التي تصلنا على أوارق نجدها في محالنا؟ لماذا يتصرف البعض على هذا النحو؟ نحن لسنا كفارا.. نحن مسلمون!

تهديدات إذن. ومن الذي يهدد؟ لا أحد يعرف. لكن الأمر لا يحتاج الى ذكاء لكي نعرف أن الفاعلين مدفوعون من جهات معينة.

بين العمى والتفجير

صاحب تسجيلات آخر، ولنقل انه (ك) قال لي: بين يوم وآخر اجد في محلي قصاصات من الورق كتب عليها هذه الجملة المخيفة: (ياحسين.. ياحسين.. انا تسجلون أغاني نعمي العين!).

لاحظوا ان منطق التهديد يجري كأنه أغنية.. أغنية مقابل الأغاني كلها. وماذا يفعل (حسين) الافتراضي، يلملم الأغاني وكل ما يشير اليها ويذهب بها الى بيته.

على اثر ذلك - يضيف - وجدت أوراقا كتب عليها: (كافي جنب.. كافي كلاوات.. نريد أغاني لو انفجر المحال!).

حيرة.. والله حيرة.. واحد يهدد بعمى العيون.. وواحد يريد تفجير المحلات!

إن منطق المنع يتبعه منطق المعارض للمنع.. وكلاهما عنيف.. لأن العنف يولد العنف، ولعبة السجع هذه التي تميز امة من الشعراء المنكوبين بالعنف والعنف المضاد سوف تستخدم بانحطاط شديد!

فهمت من (ك) أن ليس ثمة جهة رسمية أبلغت المحال بعدم تسجيل أشرطة الغناء وبيعها. لكن من المؤكد أن الناس أخذت تشتري الكثير من الاشرطة الحسينية والمحاضرات الدينية لأنها كانت ممنوعة في عهد صدام. ونحن أصحاب المحال يضيف ك كنا مضطهدين سابقاً من رجال الشرطة والأمن الذين كانوا يأخذون الأشرطة منا بالقوة ولا يدفعون ثمنها!

أين الديمقراطية؟

بينما لم نزل في محل (ك) دخل زبون طلب اغنية لهيثم يوسف، فاعتذر منه (ك) لأن الأمر يتطلب يومين: إذ سيأخذ الكاسيت الى البيت ويسجله هناك. فانفعل صاحب الطلب، واراد ان يتم ذلك فوراً. (الجميع متوترون!)، وبعد أن هدأناه بحجج قوية قال: أنا مسلم، واحترم الدين، وبين الحين والحين استمع الى الأغاني لانها تمتص تعب اليوم وهمومه. وأضاف: يجب مراعاة أذواق الآخرين. هل هذه من الديمقراطية؟ الجميع يطالب بالديمقراطية.. لكن أين هي؟

ممنوعات!

بعد هذا الدرس عن الديمقراطية توجهنا الى (شبكة البث التلفزيوني) وهي الشبكة الوحيدة التي توفر الاعلام للمدينة، وقد تشكلت بجهود عامليها، وتعمل من الساعة التاسعة صباحاً الى الثانية عشرة ظهراً، ومن الرابعة عصراً الى الثانية عشرة ليلاً. لكن هذه الشبكة لا تبث البرامج المنوعة والاغاني. فرحنا نستفسر عن السبب.

لم نعثر على مدير الشبكة المهندس عبد الرحمن داود سلمان بل عثرنا على مجموعة من العاملين تحدث بالنيابة عنهم السيد شاكر السامرائي الذي أعطانا الخلاصة الآتية:

نحن مقيدون بثلاث قنوات فضائية وهي (المنار) ذات التوجه الاسلامي، و(العربية)، وهي قناة اخبارية، وقناة (أبو ظبي) المعروفة. من هذه القنوات نأخذ التقارير والبرامج السياسية والدينية، أما الاغاني فنحن مبلغون من قبل الهيئة المشرفة على المدينة بعدم بثها. لماذا؟ لا ندري.

بعض افراد هذه الهيئة يضيف السيد شاكر لا يتفهم طبيعة عملنا. قدمنا مرة برنامج عروض أزياء، فأمسك أحد المواطنين برمانة يدوية وأخذ يلوح بها بوجوهنا قائلاً: الأزياء لا تتناسب مع اخلاقنا!

المثير في الأمر أن الستلايت دخل الى المدينة، وثمة محال عديدة تبيعه للمواطنين. لكن غالبية المواطنين من الفقراء تعتمد على ما يبثه التلفزيون المحلي من برامج، وكان في العهد السابق كما هو اليوم، النافذة الوحيدة التي تطل العوائل الفقيرة منها على العالم.

الستلايت أزاء المنع إذن! ماذا لو حدث ان (المناعين) يمتلكون الستلايت، ومثل هذا الاحتمال وارد، نظراً لحقائق توزيع الدخل التي نعرفها جيداً؟

مثل هذا المنع سوف يعزز النفاق إذن.. ومن النفاق تنبعث العذابات والمآسي والانشقاق الداخلي.

لكن قبل كل شيء: هل زالت الدكتاتورية حقاً؟ واذا ما بدأ الامر بمنع الغناء.. فأين سينتهي؟ واذا كان بالامكان منع الصوت الشجي الا ينتهي الامر بمنع اصوات المحتجين والمطالبين بحقوقهم الانسانية المشروعة؟

الهيئة المشرفة على المدينة تمنع بث الاغاني.

بعقوبة: المدى

في السوق المزدحم وسط مدينة بعقوبة، وتحديداً بالقرب من جامع الفاروق يصيح بائع على بضاعته: (فجر جارك.. خذ بثارك)

تفاجأ فتلتفت لترى ماذا يبيع فيصدمك مرأى عدد من الرمانات اليدوية الموضوعة امامه.. تنظر اليه فيقول لك:

- تفضل أستاذ.. لن تختلف على السعر.

تهز رأسك باسماً وتواصل المشي.. بعد خطوات يرفع مراهق، في الرابعة عشرة من عمره، مسدساً ثقيلاً بيده.. تسأله:

- بكم؟

يقول لك:

- بـ(150)..

تمشي فيصيح وراءك:

- (تعال عمي.. بي مجال).

تتركه فتكاد تصطدم بشاب يلوح ببندقية كلاشنكوف وقد وضع واحدة أخرى على كتفه، وعلى مقربة منه جلس كهل نحيل وأمامه اطلاقات خاصة بالمدسات والبنادق، وإلى جانبه جلس رجل القرفصاء إزاء بضاعته التي هي حزمة كبيرة من قصبات البارود الخاصة بالمدافع، يبيعها بالمفرد للأطفال..

يالله.. ماهذا؟ كأن ماتراه محاكاة عصرية ساخرة لسوق في حكايات شهرزاد.

في المكان نفسه، بعد أيام يسحب رجل مسمار أمان رمانة يدوية، على سبيل المزاح، يصرخ بجماعته وهو يضحك:

- سافلتها!

وقبل أن ينبهوه تنفجر لتقطع يده.. تقتل اثنين من المارة وتصيب أربعة آخرين بجروح، ثم يموت هو الآخر في المستشفى بعد ساعات.

وقبل أيام من هذا.. في الطرف الآخر من الشارع حكوا عن شاب يحمل رمانة يدوية وهو يصرخ فيهرب المارة. وإذ يتقدم من متجر يطلب من صاحبه أن يناوله نقوده، ويفعل الشيء نفسه مع صاحب متجر آخر قبل أن يهوي رجل كردي بهراوته على رأس اللص الذي وقع على الأرض ليسحقه الناس بركلاتهم.

وفي إحدى الضواحي يحاول صبي قذف رمانة يدوية على محل تجاري وهو يركب دراجة، ومعه اثنان من أصدقائه.. لماذا؟ لا أحد يعرف.. تنفلق الرمانة في يده فيموت الثلاثة معاً، في الحال!!

أية حكايات مريرة هذه؟ ولماذا هذا الفلتان الأمني وإلى متى؟ ولماذا كتب على العراقيين أن يموتوا بهذه الطريقة المجانية السخيفة؟ ماهذا الأرث البغيض الذي تركه النظام البائد المقبور؟ ومن سيوقف هذا الدولاب القاسي الكريه عن الدوران؟